تيسير البلاغة

جميع الحقوق محفوظة

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م

تيسير البلاغة

تأليف

الشيخ أحمد القلاش

من علماء حلب ونزيل المدينة المنورة

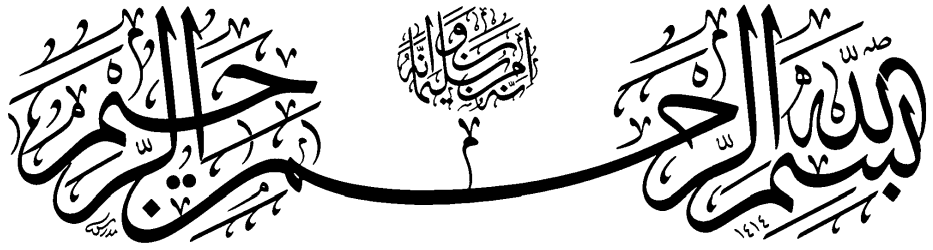
بسم الله الرحمن الرحيم
إنه من سليمان وإنه
١٤١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

حمدًا لمن خلق الإنسان، علَّمه البيان؛ والصلاة والسلام على إمام البلغاء سيِّد الحكماء، أفصح من نطق بالضاد، وهدى العباد إلى سبيل الرشاد.

وبعد، فهذه رسالة في «تيسير البلاغة» صغير حجمها، يسير فهمها، تُغني قارئها عن مطالعة الموسوعات، بما حوته من أساليب الإيضاح، وضرب الأمثال.

ولقد جعلنا أكثر أمثلتها من سيرة الرسول الأمين ﷺ، وبطولات أصحابه الغُرّ الميامين، ليمتلئ فكر الناشئ حينما يقرأ هذه الأمثال، بإكبار هذا القائد والأشبال؛ فعساه أن ينتفض لاستعادة مجده، واسترداد ميراث أبيه وجدِّه؛ والله نسأل أن ينفع بها الطلاب، فهو خير مرجو وأكرم من أجاب.

الفصاحة

يشترط لفصاحة الكلام أن يكون جيد السبك، سهل اللفظ، واضح المعنى، منسجم التركيب، عذبًا فراتًا سائغًا، يحسن وقعه على السمع، ويستحليه الذوق والطبع؛ سليمًا من التعقيد، لا يخالف قواعد النحو والصرف، لا تنافر في حروفه، ولا غرابة في كلماته.

ثم إن علوم البلاغة جميعها إنما يراد بها تنمية الذوق الفطري وصقله وترويضه ليستطيع اللسان التعبير عن الإحساس بنواحي الجمال في الشعر والنثر الفني.

ولا يزال الموهوب الشَّغوف بالأدب يدمن القراءة والاطلاع، ويقف طويلًا أمام القطع الفنية متأثرًا بها، حتى تجتمع له مَلَكة يقدر بها على التعبير البليغ، والأسلوب الساحر الأخّاذ، فيكون قد ضمّ إلى ذوقه الموهوب ذوقًا مكسوبًا.

إن الإحساس بجمال التعبير كالإحساس بجمال الإيقاع، فمن لم يرزق أُذنًا موسيقية لم ينفعه حفظه لأسماء الأنغام، ولا إكثاره من بيان الأقسام؛ كما أن من خلق أعمى لا حيلة لنا في أن يعرف الألوان.

إن كثيرًا من الناس نَظَمُوا الشِّعر الجيد قبل أن يدرسوا العَروض، ويحفظوا البحور، إذ ليس بحفظ الأوزان وحدَها يصبح الإنسان شاعرًا، وليس كل شعر يهزّ الشعور، ويحرك الوجدان.

لقد اختلف الناس في تعريف الجمال؛ وأقرب ما عرّفوه به: أنه تناسب الأعضاء، وحسن تركيبها.

وكما أن صور الناس متفاوتة: ما بين دميم وجميل وأجمل وبديع الجمال، فكذلك

صور الكلام تتفاوت: ما بين غثّ ورديء، ومقبول، وجميل، وبليغ، ومُعجِز.

وليحذر الأديب أن يحاكي غيره في إحساسه بما لا يجده هو في نفسه، أو يردد كالببغاء ما لم يقتنع به، فيفسد ذوقه، ويكون كشريط مسجل، لا يفقه ولا يعقل؛ بل يلزمه أن يتعوَّد النقد الحرّ البريء، وليكن أديبًا في نقده، نزيهًا في بحثه، عميقًا في فكره.

البلاغة وعلومها

البلاغة لغة: الوصول والانتهاء، والمتكلم العاجز عن إيصال كلام ينتهي إلى قرارة نفس السامع ليؤثر فيها تأثيرًا شديدًا لا يسمى بليغًا.

بلاغة الكلام: أن يكون الكلام فصيحًا قويًّا فنيًّا يترك في النفس أثرًا خلابًا، ويلائم الموطن الذي قيل فيه، والأشخاص الذين يخاطَبون.

فلو دُعيتَ إلى صلح، فتلوت قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧] و﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء:١٢٨]، كنت حكيمًا بليغًا.

أما لو تلوت ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩] لم تكن بليغًا، إذ لم تلائم الموطن الذي قيلت فيه.

ولو قال أستاذ لزوجته الأمية: (ناوليني المِزْبَر من القِمَطْر) يريد القلم من المحفظة لم يكن كلامه بليغًا رغم فصاحته، لأنه لا يلائم مستوى زوجته.

تمرين

هل تجد فيما يلي كلامًا بليغًا:

١ـ إذا أنعمت على إنسان صرت أميرًا، وإذا استغنيت عنه لم تفتقر إليه، وإذا احتجت للناس أسروك.

٢ـ قال سيدنا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أحسن إلى من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره».

٣ـ من يَهُن يسهلِ الهوانُ عليه ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ

٤ـ إن الشخص المهين إذا جرحت يده لم تؤلمه.

٥ـ بقدر الجِدّ تكتسب المعالي ومَن طلب العُلى سهِر الليالي

٦ـ عالي الهمة يبذل جهده، ويطيل سهره وسُهْدَه.

علوم البلاغة ثلاثة:

المعاني، والبيان، والبديع

فعلم المعاني: علم يعرف به هل طابق الكلام ما يطلبه الحال أم لم يطابق؛ فمثلًا حال المخاطب الذكي يقتضي الاختصار، وحال العنيد أو البليد يقتضي التطويل، كما قيل:

تكفي اللبيبَ إشارةٌ مرموزةٌ وسِواه يُدْعَى بالنداء العالي

وقد قال الفيلسوف الكِنْديّ للمُبَرِّد: إني لأجد في كلام العرب حشوًا!! فقال المبرد: وأين هو؟ قال: أجدهم يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ مختلفة والمعنى واحد، فأجاب المبرد: بل المعاني مختلفة:

فالأول: إخبار عن قيامه.

والثاني: جواب عن سؤال سائل.

والثالث: ردّ على منكر، فقد اختلفت الألفاظ لاختلاف المعاني، فسكت الكندي.

فإذا أوردنا الكلام على قياس المعنى اللازم؛ فاختصرنا للذكي، وأطلنا للغبي نكون قد وُفِّقْنا للصواب في علم المعاني؛ وإن عكسنا أخطأنا.

ترى الخياط يأخذ أولاً قياس الجسم، ثم يقصّ ويخيط على حسب القياس. وكذلك البِناء تسبقه عملية الهندسة والرسم في خارطة صحيحة.

لهذا قدمنا علم المعاني في الدراسة على علم البيان، كما تسبق عملية الهندسة عمل البنيان، وكما يسبق القياسُ والرسمُ القصَّ والخياطة.

وعلم البيان: علم يُبحث فيه عن شكل الألفاظ من حيث تبيينها للمعاني: هل هي في صيغة الحقيقة المجردة، أو التشبيه، أو المجاز، أو الكناية، كما نرى شكل الخياطة فنعرف نوعها: من ثوب أو جبّة، أو قَباء أو معطف.

أما علم البديع: فراجع إلى تحسين اللفظ وتزيينه، كوضع أزرار وورودٍ وزخارف لتزيين ثوب العروس بعد تمام خياطته، وكنقوش الدّهان، بعد تمام البنيان. ورتبته التأخير عن الكل.

تمرين

بَيِّن فيما يلي ما يخلّ بالبلاغة، وضَعْ ما يناسب المقام:

١ـ هنأت صديقك بمولود، فتلوت قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

٢ـ حَضَرْتَ تعزية، فقلت: العُقبى لكم.

٣ـ باركت لأخيك بزفافه، فقلت: عظّم الله أجركم.

٤ـ قرأت في عقد نكاح: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة:٢٢٩] أو ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء:١٣٠].

٥ـ أنشد منشدٌ في زفافٍ قصيدةً، آخِرُها:

فليت شعريَ والدنيا مفرِّقة ... بين الرفاق وأيامُ الورى دُوَلُ

هل ترجع الدارُ بعدَ البُعدِ آنسةً ... وهل تعود لنا أيامنا الأُوَلُ

علم المعاني

مبحث الكلام

لا بد للبليغ من التفكير أولًا في «**المعاني**» التي تجيش في صدره، لتكون صادقة ذات قيمة وقوة يظهر فيها أثر الابتكار، وسلامة النظر، ودقة الذوق في تنسيق المعاني وحسن ترتيبها.

فإذا تم له ذلك عمد إلى «**الألفاظ**» الواضحة المؤثرة الملائمة فألف بينها تأليفًا يكسبها جمالًا وقوة.

فالبلاغة ليست في اللفظ وحده، ولا في المعنى وحده، ولكنها أثر لازم لسلامة تأليف هذين، وحسن انسجام «**الكلام**».

الكلام

أقسامه ـ ركنا الجملة ـ أقسام الخبر ـ أغراضه

أقسام الكلام

الكلام قسمان:

١ـ **خبر**: يصحّ أن يقال لقائله: إنه صادق إن كان كلامه مطابقًا للواقع، أو كاذب إن كان غير مطابق له.

مثل: (بعت كتابي أمس بخمس).

٢ـ **إنشاء**: لا يصحّ أن يقال لقائله: إنه صادق أو كاذب.

مثل: (هل تشتري حقيبتي هذه بخمس ليرات؟).

ركنا الجملة

ثم إن لكل جملة خبرية أو إنشائية ركنين:

مسنَدًا، ومسنَدًا إليه؛ وهما «عمدة الكلام».

مثل: (فهم الطلاب) فالمسند «فهم»، والمسند إليه «الطلاب».

ومثل (الدرس مفهوم) فالمسند «مفهوم»، والمسند إليه «الدرس».

ومثل (هل فهم الطلاب) فالمسند «فهم»، والمسند إليه «الطلاب».

فتبين أن كل فعل «مسند»، وكل فاعل «مسند إليه»؛ وأن كل خبر «مسند»، وكل مبتدأ «مسند إليه» وهكذا...

ومثل الفاعل نائبه فهو مسند إليه، ومثل المبتدأ اسم «كان» و«إنّ» فهو مسند إليه، ومثل الخبر خبر «كان» و«إنَّ» فهو مسند.

وما سوى المسند والمسند إليه يسمى «فضلة في الكلام».

أقسام الخبر

تقول لموجه المدرسة إذا تأخرت يومًا فسألك لمَ تأخرت؟:

١ـ «أنا مريض» يُقال هذا في البدء بدون تأكيد، لأن المخاطَب خالي الذهن ويسمى: «ابتدائيًّا».

فإذا تردد الموجه قلت:

٢ـ «إني مريض» يقال هذا له ثانيًا لأن حاله من التردد يطلب التأكيد ويسمى: «طلبيًّا».

فإذا أنكر الموجه وغضب قلت:

٣ـ «والله إني لَمريض» يقال هذا له بكل ألفاظ التأكيد لأنه منكِر شديد، ويسمى: «إنكاريًّا».

ألفاظ التوكيد

من ألفاظ التأكيد: إنّ، وأنّ، والقسَم، ولام الابتداء، وقد ، وأحرف التنبيه، ونونا التوكيد، والحروف الزائدة، والتكرير، وأمّا الشرطية.

تمرين

بَيِّن أقسام الخبر مما يلي:

١ـ بعث الله رسولين إلى قرية، فقالا: أرسلنا الله إليكم، ولمّا كذّبوهما عزَّزهما الله بثالث، فقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ [يس:١٤]، فأنكر القوم بشدة وعاندوا، وقالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٥ ـ ١٦].

٢ـ قال لبيد:

ولقد علمتُ لَتأتينَّ منيتي ... إن المنايا لا تَطِيشُ سِهامُها

٣ـ وقال أبو الطيب:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدرِ الكرامِ المَكارمُ

وتكبرُ في عين الصغير صغارُها ... وتصغر في عين العظيم العظائمُ

أغراض الخبر

يريد المتكلم من خبره أحد شيئين:

أـ إما إفهام المخاطب أمرًا يجهله، كقولك لرفاقك: «قدِم والدي من حجه، وسأدعوكم إلى وليمة» ويسمى هذا: «فائدة الخبر».

ب ـ أو إعلام المخاطَب أن المتكلم عرف الخبر، فإذا دعوتَ رفاقك إلا يحيى، فقال لك يحيى معاتبًا: «دعوتهم كلّهم إلا أنا» كان مراده أنه عرف خبر الوليمة، ويسمى هذا: «لازم الفائدة».

القواعد:

الأصل في الخبر أن يُلقَى لأحد غرضين:

١ـ لإفادة المخاطَب أمرًا يجهله، ويسمى ذلك: «فائدة الخبر».

٢ـ لإفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالأمر ويسمى: «لازم الفائدة».

وقد يُلقَى الخبر لأغراض أخرى تفهم من السياق، مثل:

أـ الاسترحام مثل: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

ب ـ إظهار الضعف: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [مريم:٤].

جـ إظهار التحسر: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران:٣٦].

دـ الفخر مثل:

كانت منازلُنا بالعزّ شامخةً لا تُشرق الشمسُ إلا في مَغانينا

هـ التعريض مثل: أنا لا أكذبُ.

تمرين

١ـ بَيِّن الخبر والإنشاء مما يلي:

المجتهد ناجح ـ اجتهدْ تنجح ـ هل صليت الفجر؟ ـ أثقل الصلاة على المنافقين صلاة الفجر والعشاء.

٢ـ بَيِّن المسند والمسند إليه مما يلي:

قائد القادسية سعد ـ سيد الشهداء حمزة ـ انتصر المسلمون يوم بدر ـ جاهِدوا في سبيل الله حقّ جهاده.

٣ـ بَيِّن غرض الخبر مما يلي:

صدقة السر تطفئ غضب الرب ـ رأيتك ليلًا تتصدق على جارك ـ علمت من ينقل الآن في الفحص ـ النقل عيب وحرام ـ لقد نجحتَ في الفحص ـ ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٤] ـ أنا البائس الفقير ـ ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦] ـ منزلي مأوى الأضياف ـ كان فتح مكة في شهر رمضان في السنة الثامنة من الهجرة ـ مِنَّا عمر بن الخطاب الذي ملأ الدنيا عدلًا ـ ومِنَّا خالد الذي فتح بسيفه البلاد شرقًا وغربًا ـ ذهب الشباب فما له من عودة ـ لقد أدبّت ولدك فأحسنت ـ أنت الذي ألقيتَ أمس خطبة رائعة.

إلـــهي عبـــدُك العـــاصي أتـــاكا مُقِـــرًّا بـــالذنوب وقـــد دعاكا

مات أبي وتركني رضيعًا.

الإنشاء وأنواعه

طلبي: كالأمر والنهي، اجتهدْ ولا تكسل.

والاستفهام، مثل: هل فهمت الدرس؟

والتمني، مثل: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤].

والنداء، مثل: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزُّمَر:١٦].

ففي الأمر طلب الفعل، وفي النهي طلب الترك، وفي الاستفهام طلب العلم بالشيء، وفي التمني طلب المحبوب، وفي النداء طلب الإقبال.

وغير طلبي: كالتعجب، مثل: ما أنفعَ العلمَ!

والمدح، مثل: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ [النحل: ٣٠ ـ ٣١].

والذم، مثل: بئس التلميذ الكسلان.

والقسَم، مثل: ﴿وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس:٥٣].

وصِيَغ العُقُود، مثل: بعتك كتابي هذا بليرة، فتقول: اشتريت.

أما هذا القسم الثاني فلا طلب فيه، بل هو تعبير عن شعور المرء وإعجابه بشيء أو مدحه أو ذمه، أو تعبير عن بيع أو شراء أو قَسَم أو نحوها.

تمرين

بَيِّن نوع الإنشاء وصيغته مما يلي:

١ـ (أَحْبِبْ حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضكَ يومًا ما، وأبْغِضْ بغيضكَ هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما).

٢ـ أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤك إنَّ شيمتك الحياءُ

٣ـ لعل عتبك محمودٌ عواقِبُه وربّما صحّت الأجسامُ بالعللِ

٤ـ ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحُجُرات:١١].

٥ـ ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة:٢٧١].

٦ـ وإذا سمعتَ بهالِكٍ فتيَقَنَنْ أن السبيلَ سبيلُهُ وتزوَّدِ

٧ـ لا تنهَ عن خُلُق وتأتيَ مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

٨ـ ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب:٦٦].

٩ـ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧].